الشوارع الضالة

الشوارع الضالة

وليد الزيادي

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: عمرو عبد العزيز

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/٥٣٣٨
I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 539 – 1

الشوارع الضالة

مجموعة قصصية

وليد الزيادي

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الزيادي، وليد

الشوارع الضالة: مجموعة قصصية/ وليد الزيادي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ١ ٥٣٩ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣,٠١

رقم الإيداع / ٥٣٣٨ / ٢٠١٩

المحتويات

- ثنائية الإنساني والمادي.. بقلم د. شريف الجيار 7
- لوحة وطن 15
- مـول 2030 19
- سعاد البين 23
- لم تكن وحدها 29
- الخيانة 33
- فلانتين 35
- لا مبالاة 39
- هستيريا 43
- غـيرة 49
- الهاتف رقم (1) 51
- لعنة عطا الله 55
- سيد تكنولوجيا 59

- رائحة الموت 67
- ثلاجة رضوان 71
- الشوارع الضالة 75
- ضياع 85
- الوهم 87
- تعب 89
- لص 91
- عودة 93

ثنائية الإنساني والمادي

قراءة في قصص "الشوارع الضالة" لـ وليد الزيادي

د. شريف الجيار

بعد خوضه غمار القصيدة الشعرية، ومُتخيَّلها المجازي، وصورها المتوهجة، وتراكيبها المتمردة عن المألوف اللغوي، يطرح المبدع اليمني وليد الزيادي، باكورة إنتاجه السَّردي، عبر مجموعته القصصية "الشوارع الضالة"؛ التي تضم بين دفتيها عشرين قصة قصيرة، كتبت بين عامي (2012 – 2016م)، تجسدت في: "لوحة وطن، مول 2030، سعاد البين، لم تكن وحدها، الخيانة، فلانتين، لا مبالاة، هستيريا، غيرة، الهاتف رقم (1)، لعنة عطا الله، سيد تكنولوجيا، رائحة الموت، ثلاجة رضوان،

الشوارع الضالة، ضيـاع، الوهـم، تعب، لص، عـودة".

والقـاريء للخطـاب السَّردي لهـذه المجموعـة القصصية، يدرك أنه حيال سرد إنسـاني مفعـم بالنوسـتالجيا، صوب الأماكـن الماضوية، والطبيعـة الفطريـة للإنسـان، قبل أن تغـزو التكنولوجيـا حياته، وتغير مـن رؤيته للواقع المعيش، وتبدل موقفه تجاه نفسـه، وتجاه المشـاركين له في هـذا الكوكب؛ لـذا تهيمن ثنائية الماضي والحاضر، الإنسـاني والمادي، البشري والتكنولوجي/ الرقمي، الرجل والمرأة، السـلام والحرب، على معظم قصص المجموعة، وسردها الخارجي، وراويها العليم، الذي أخذ يرصد لنا موقف الإنسـان مـن عالمه، عبر ذاكرة مثاليـة، تنتصر للماضي، وللإنساني، وللحب المفتقد، وللسلام المنتظر.

ويخـوض الـراوي عنـد وليد الزيـادي، مغامرة الكشـف عـن واقع التيه، الذي أضحى الإنسـان العربي جزءاً منه، فلم يسـتطع مجاراة القفزة التكنولوجية الرقمية، التي واكبت عولمة النسـق الدولي، لاسيما الأجيال التي سبقت هذا العصر، وأُقحمت فيه بحكم النقلة الزمنية، فأصبحت في صراع نفسي مع هذا الواقع الجديد، الذي يلائم طبيعة الأجيال الجديدة، التي تعد ابنة هذا النظام التكنولوجي الرقمي؛ لذا نجد الأنماط الإنسانية لهذه المجموعة القصصية، تقف في مرحلة البين بين، بين ماضيها وذاكرته وفطرتـه، وبين الحاضر المادي الجديد، الـذي فرض قوانينه وماديته، على

حياة الإنسان، لاسيما الإنسان العربي، الذي أُصيب بحالة من النكوص والارتداد، للبحث عن ماضيه ووطنه وذاته، في ظل صدمة حضارية جديدة، تفرض واقعها وقوانينها، على هذا الإنسان، الذي استيقظ على واقع مادي، بشوارع مزدحمة، ومطارات، وأبراج عالية، ومدن؛ حيث "استمر في الرسم. صعد بإحساسه عالياً، تجاوز القمم، كاد أن يلمس نجم "سهيل". لكنه لم يستطع الصمود. هوى سريعاً إلى الأرض. الفرشاة والذاكرة سقطتا معاً. رُدّ إليه بصره. نظر إلى اللوحة.

لم يجد سوى شوارع مزدحمة، ومطارات، وأبراج عالية، ومدن"/ من قصة "لوحة وطن".

ويستعين الراوي عند الزيادي ببنية المفارقة، والمشهدية البصرية، التي اعتمدت على الفعل الماضي، والجمل القصيرة، التي كثفت من سرعة إيقاع السرد، بما يتوائم مع طبيعة القصة القصيرة، ومواقفها السريعة، لا سيما في عصر التكنولوجيا، الذي يعيشه الإنسان الآن وفي المستقبل القريب؛ حيث أصبح جزءاً أصيلاً من هذا العالم الرقمي، الذي حول حياته كلها إلى عالمية المادة، وتراجعت المشاعر الإنسانية الطبيعية، حتى أصبحت الفطرة غريبة في واقع التكنولوجيا، لا سيما مع الأجيال الجديدة، فالجميع مُحاط بالتكنولوجيا، منذ طفولتهم، فهم في مول 2030م العام الذي يتعايش فيه الجميع، لا سيما الأطفال بالتكنولوجيا، إلا طفل

واحد استمر في البكاء، لأنه أراد المشاعر والأمومة، التي لم ولن يجدها الإنسان -بسهولة- في عصر المادية؛ لذا "اضطرت الأم إلى أن تأخذه وتضمه إلى صدرها. استمرت في الطبطبة على ظهره، وبشعور لا إرادي بدأت تدندن له لحناً. راحت تغني له بهدوء. شعر بالاطمئنان وبدأ بكاؤه يخف حتى توقف. المارة ينظرون إليها باستغراب شديد. بدأوا يقفون وينظرون إليها. تناقلت الهواتف النقالة الحدث. وبسرعة البرق تجمّع كل من في المول حول هذه الأم ورضيعها. السيارات توقفت عن الحركة. جميع مَنْ في المدينة يُسارع إلى المول...

تناقلت وسائل الإعلام المرئية والمقروءة الخبر حول العالم كله، تحت عنوان "حادث غريب والأول من نوعه في مول 2030"/ من قصة "مول 2030".

فضلاً عن ذلك، يكشف الراوي العليم الجانب السيء لاستخدام التكنولوجيا، في واقعنا العربي، الذي يؤدي -أحياناً- إلى تدمير الترابط الأسري، والخيانات الزوجية، لأننا غير مؤهلين لاستخدامها، بالشكل العملي؛ فنحن أمام زوج يصر على الالتصاق بماضيه، وأرضه التي تجسد ذكرياته وأسرته وجذوره، بينما زوجته تسعى لعلاقة جديدة، مع رجل آخر، "حينما كان في البيت يستعد للاحتفال بعيد ميلادها، كانت تحتفل بالمناسبة نفسها مع رجل آخر تعرفت إليه عن طريق الشبكة الإلكترونية،

نظراً لانشغالات زوجها المهنية، وتسلية لأوقات فراغها. رفضت مراراً وتكراراً الخروج مع الرجل الغريب؛ لكنها وافقت في النهاية.

ترددت كثيراً، وكانت خائفة. لكنه فتنها بثقته بنفسه وأسلوبه الناعم الرقيق..."/ من قصة "لم تكن وحدها".

وفي قصة "سيد تكنولوجي" يكشف الراوي الآثار السلبية للتكنولوجيا على حياة الإنسان، وسيطرتها على حياته، حتى كادت أن تقتله، إذا حدث تغيير في شفرتها، فالإنسان مهم وباق، كما نرى في شخص "سيد تكنولوجيا" رجل الأعمال الذي كان مغرماً بالتكنولوجياً، "... وبالتنسيق مع أكبر الخبراء في العالم، ومن بلدان شتى، قام السيد تكنولوجيا بتصميم قصر ضخم بأحدث الأنظمة الحديثة: تنفيذ كافة الأوامر عن طريق الصوت...

حاول السيد تكنولوجيا أن يُعرّف الهاتف إليه. خلع قميصه المتسخ ومسح به آثار الدم عن وجهه؛ ولكنه لم يستطع أن يزيل آثار المرض والتعب والخوف، وما إن رأى الهاتف وجهاً غير مألوف لديه، حتى أصر على الصمت وعدم فتح أزراره"/ من قصة "سيد تكنولوجيا". على أن "سيد تكنولوجيا" أضحى سجين هذه الرقمنة، التي لم تستطع التعرف عليه، إثر تغير صوته، نتيجة لإصابته بالأنفلونزا، فكاد أن يموت،

في غيـاب العنـصر البشري، الـذي يعلن وجـوده وأهميتـه، مهما طغت التكنولوجيا على حياتنا.

وعلى جانب آخر في قصص المجموعة، يطرح الراوي العليم، عبر بنية سردية بسـيطة، منظوره السَّردي تجاه الواقع الإنسـاني الاجتماعي، الذي أُصيـب بالخيانة، وذوبان العاطفـة في واقع مادي، وقتـل الزوجة لمجرد الشك، كما نرى في قصص "الخيانة، فلانتين، وغيرة، والهاتف رقم واحد، ...". ويُصعِّد السّـياق السَّردي للمجموعة القصصية، من غربة الإنسان واغترابـه، حتـى في وطنه، الـذي يفقده حريته، ويسـلبه إرادتـه، فيقرر الهجـرة، كما في قصة "الشـوارع الضالـة" المفعمة بالنوسـتالجيا، والحنين للوطـن المفقود، الـذي تغير للأسـوأ، في ملامحه وفي مفرداتـه الصغيرة؛ لـذا "واصل المشي بين الأحياء والشـوارع وكأنه إبرة تجُـرُّ خلفها خيوط الذكريات تُرقّع شـوارع وأحياء صدئت وشـاخت وتغـيرت الكثير من ملامحها وصُبغت سماؤها بأدخنة سوداء، وانتشرت بين أرصفتها المتسخة جِراء الشوارع الضالة"/ من قصة "الشوارع الضالة".

ويؤسـطر الراوي، بعض الأنماط الإنسـانية، داخل سـياقه السَّردي، لا سـيما في المجتمع الشـفاهي المنغلـق، الذي يُكثِّـف مـن خيالاتـه، التي تطـرح النمـوذج المتوهم، بعيداً عن التفسـير العلمـي الموضوعي للظواهـر، كـما نرى في قصـة "لعنة عطـالله"، الذي ظهر فجـأة واختفى

فجـأة، في الـوادي الذي يبعـد عن الـمدينـة، فـ"منذ أن جـاء عطا الله، أصبـح الوادي في أمـان من الوحـوش والحيوانات الضارة والمفترسـة. لم يكـن يحمـل بندقية أو خنجراً، بـل كان يتصارع مع الذئـاب والضباع وكأنه شمشـون الجبار. كان يطارد أصواتها في الليل، وحده، وكان يطلق زئيراً كزئير الأسد.

وعندمـا يصبـح الأهـالي، كانوا يجـدون رؤوس الضبـاع معلقة على الأشجار الضخمة.

تناقلوا عنه القصص والأسـاطير. يقولون إنه أتـى من وادي الموت، وإنـه يتغذى عـلى الأفاعـي والحيوانات المفترسـة، ويأكل اللحـم النيئ وأوراق الشجر.

البعـض قـال إنه سـوف يعـود مثـل الطوفـان، ويذهـب بالأخضر واليابـس... البعـض الآخـر قـال إنـه مـات وأكلتـه الـكلاب الضالة والحيوانـات المفترسـة... آخـرون قالـوا إن العرَّافة أرسـلته مع رؤوس الثيران إلى وادي الموت...

استمر خوفهم وقلقهم سنوات طوالاً، وتحول إلى روح شريرة تسكن الـوادي؛ فعندما تحـل عليهم المصائـب والكوارث يظنون أنهـا لعنة من لعنات عطا الله"/ من قصة "لعنة عطا الله".

ولم يستمر الراوي في الشكل المعتاد للقصة القصيرة، بل نجده يطرح شِّعرية القصة القصيرة جداً، التي تعتمد على التكثيف والاختزال اللغوي؛ لا سيما في قصص "ضياع، والوهم، وتعب، ولص، والعودة"، وكلها سياقات لـمُتخيَّل إنساني اجتماعي، يطرح حالة التشظي الإنساني، وحياة التيه والوهم، المهيمنة على واقعنا المعيش، كما نرى في قصة "العودة"، "يعود إليها بألوان الطيف الستة...

تاركاً اخضرارَ قلبه في المكان الذي جاء منه"/ من قصة "العودة".

إننا حيال تجربة سردية جديرة بالنظر النقدي، رغم بساطة شعريتها، وسلاسة لغتها، فهي باكورة إنتاج لشاعر يمتلك أدواته، في حقله السَّردي الجديد.

لوحة وطن

قـرر أن يرسم لوحـة للوطن.

أحضر فرشـاته وألوانه. وقف أمام اللوحة البيضاء سـاعات طويلة، يغمض عينيه تارة، وينظر إليها تارة أخرى.

أطلق العنان لبصيرته.

حاول أن يسـتحضر صوت أبيه، الذي كان يحدثه عن قريته الخضراء ووديانها الجميلة الممتلئة بالشلالات وينابيع المياه الصافية... عن قطرات النـدى المتسـاقطة من ورق الأشـجار وكأنهـا حبات مـن اللؤلؤ... عن قلوب الناس الصافية... عن فتيات الريف الحِسـان... عن بيوت الطين

القديمة، ونوافذها المطرزة بالقمريات والألوان الزاهية...

تذكّـر بعض الألحان والأغاني القديمة التي كان يغنيها له والده، وبدأ يدندن بها ويرسم.

مـزج الألوان. أغمض عينيـه طويلاً؛ حاول أن يسـتحضر وطنه بين يديه؛ أن يتلمس دفء الشـمس ورائحة القهوة؛ أن يسمع صوت الراعي عبر أنـين الناي يعزف حزنه، يسـتعطف مَنْ بسـهول الـوادي، وقلوب النسوة، كي تأتي محبوبته الخائفة إليه.

حـاول أن تتملكه غيمة آب، كي تنثره رذاذاً على قريته المنسـية. مزج الألوان بروحه... وبقلبه.

لكن ملامح لوحته لم تظهر بعد.

كان بحاجة إلى مزيد من العطش والحنين؛ إلى قدمين قويتين تتجذران في الأرض، ويد سمراء مُتخشِّنة، تحفر بأظفارها الصخور وتتسلق الروابي والتلال؛ إلى رئتين واسعتين تستنشقان الهواء العليل.

اسـتمر في الرسم. صعد بإحساسه عالياً، تجاوز القمم، كاد أن يلمس نجم "سهيل".

لكنه لم يسـتطع الصمود. هوى سريعاً إلى الأرض. الفرشاة والذاكرة

سقطتا معاً. رُدّ إليه بصره. نظر إلى اللوحة.

لم يجد سوى شوارع مزدحمة، ومطارات، وأبراج عالية، ومدن.

مـــول 2030

غــداً رأس السـنة الميـلاديـــة. النـاس جميعهم يحتفلـون. معظمهم سـيأتون إلى "مـول 2030"، فهو من أجمل المـولات في المدينة. البشر هنا كآلات متحركـة، لا ينظـر أحدهم إلى الآخر، فهم مشـغولون ومُتلهّون بهواتفهم. لا تسـمع سوى صوت السلالم المتحركة، وطقطقات الهواتف النقالة.

هنـا صبي في الثانية عشرة مـن عمره في محل للأحذيـة، حائر في لون الحـذاء الذي يرغب في شرائه؛ هل يأخذ اللون الأسـود أم البني؟! يقوم بتصويرهما.

يرسل الصورتين إلى هاتف والده في المحل المجاور له، الخاص بالملابس والقمصان الرجالية.

يتلقى رسالة من والده تحمل رقم (2)؛ أي: الحذاء الثاني. فيرُد برسالة بها صورة طفل مبتسم (شكراً).

يبادله أبوه بصورة أخرى مماثلة (عفواً).

في المقهى رجل جالس على الكرسي، وأمامه لوحة إلكترونية، يختار فيها ما يشاء من مشروبات ومأكولات. بكبسة زر، طلب فنجاناً من القهوة. أتته النادلة تُحييه بابتسامة خفيفة. بادلها الابتسامة وشفتاه مغلقتان.

أثناء شربه للقهوة، يُخرِج هاتفه المحمول ويرسل صورة لزوجته، عبارة عن باقة من الورد بمناسبة عيد زواجهما.

ترد عليه بصورة وجهٍ باكٍ (بكاء الفرحة؛ لأنه تذكّرها بباقة جميلة من الورود الحمراء).

ألعاب الأطفال جميعها إلكترونية. يختار الطفل اللعبة التي يريدها إلكترونياً (نطّ الحبل، كرة قدم، كرة سلة، قتال، بولينغ، رسم... إلخ).

فجأة، ودون سابق إنذار، صوت رضيع باكٍ يصرخ ويجهش بالبكاء. تأتي أمه مسرعة إليه.

فالأطفـال في هـذه المدينـة لا يعرفـون البـكاء، فهـم منـذ ولادتهم محاطـون بأجهـزة حساسـة. فالـ"بامـبرز" إذا كان تالفاً يرسـل موجات كهرومغناطيسـية إلى هاتـف الأم، إشـارة إلى أن الطفـل بحاجة إلى غيار جديد، وذلك قبل أن يشعر الطفل بضيق.

السترة الداخلية التي يرتديها مزودة بأجهزة حساسة تعرف متى يشعر بالجوع.

الـخَـدُوج منـذ ولادتهم لا يخرجون من المشـفى إلا لو نسـوا البكاء وتأقلموا مع التكنولوجيا.

ولكن هذا الطفل ما زال مستمراً في البكاء!

أسرعت أمه إليه خائفة، وخجلة أيضاً.

وضعـت في فمـه الرضّاعـة الإلكترونية (كلـما رضعها الطفـل تبدأ بالعـزف له)؛ لكنه رفضها. تفحصت جميع الآلات الحساسـة التي عليه. جميعها تعمل بشـكل جيد، وتشـير إلى عدم وجود أي مشـكلة، حسـب المعطيات التي لديها.

قامت بتشغيل الجهاز الهزاز للكرسي الذي تضعه فيه لعله ينام. ولكن دون جدوى، ما زال الطفل يصرخ.

اضطرت الأم إلى أن تأخذه وتضمه إلى صدرها. استمرت في الطبطبة عـلى ظهـره، وبشـعور لا إرادي بدأت تدندن لـه لحناً. راحـت تغني له بهدوء. شـعر بالاطمئنان وبـدأ بكاؤه يخف حتى توقـف. المارة ينظرون إليها باسـتغراب شـديد. بدأوا يقفون وينظرون إليهـا. تناقلت الهواتف النقالـة الحدث. وبسرعـة البرق تجمّـع كل مَنْ في المول حـول هذه الأم ورضيعها. السـيارات توقفت عن الحركة. جميع مَنْ في المدينة يُسـارع إلى المول...

تناقلت وسـائل الإعلام المرئية والمقروءة الخبر حول العالم كله، تحت عنوان "حادث غريب والأول من نوعه في مول 2030".

2012/1/15

سعاد البين

لم تكـن تحلـم بأن تراه مجـدداً؛ فبعد أن ضاعت هي مـن يده، ظل هو أسيراً لها سنوات طويلة، وأُصيب بمرض نفسي مقارب للجنون.

قبل عشرة أشـهر تحديداً، اسـتطاع أن يتجاوز الأزمة إلى حدٍّ ما، وأن يضع قدمه على أول الطريق لرسم مستقبله الذي كان يحلم به معها، وهو أن يكون شاعراً مشهوراً.

واليوم هو موعده الأول مع إحدى دور النشر، عرضت عليه أن تنشر قصائـده في كتـاب، بعد أن نشر معظمها في الصحـف والمجلات المحلية والعربية.

كان سعيداً جداً بهذه الخطوة. حمل أوراقه في يده، وبرفقته زميل دربه الذي ساعده كثيراً في اجتياز أزمته.

صعدا إلى الباص، الذي يحمل ستة ركاب، ثلاثة في كل كرسي، وفي اتجاهين متقابلين. جلس بين زميله الذي جلس قرب الباب، ورجل آخر قرب النافذة.

كانت جالسة على الكرسي المقابل.

عندما رأته برقت عيناها، وأوشكت على البكاء. تسارعت ضربات قلبها. ضغطت كفيها بكل قوتها، تحاول أن تتمالك أعصابها.

لم يعرفها. ولم تحاول أن تجذب انتباهه. ماذا ستقول وقد خذلته وتزوجت مُكرَهة ابن عمها الذي أمرها بارتداء الخمار والجلباب عند خروجها من البيت، والذي لا تخرج منه إلا للضرورة القصوى.

احتضنته برموش عينيها. لم تطق صبراً، فقررت أن تناديه وتكلمه. لكن طفلها الذي في أحشائها ذكّرها بأبيه، محاولاً إشغالها عن حبيب عمرها. أُصيبت ببعض الغثيان والدوار، فقد كانت في شهرها الثالث.

الطريق مزدحم جداً، والسيارات تتحرك ببطء شديد. كان هو منشغلاً مع صديقه، يقرأ له بصوت خافت مختارات من قصائده الشعرية.

– الله الله! جميل! جميل ما تقوله يا أستاذ!

كان هذا صوت السائق، الذي كان يسترق السمع إليهما.

– هل لي أن أطفئ الكاسيت، وأن تطربنا بصوت عالٍ بهذه الترنيمات الرائعة؟ فأنا خريج أدب إنجليزي، ومتذوق للشعر والأدب؛ ولكن ظروف الحياة أجبرتني على هذه المهنة الشاقة والمتعبة! أسمِعنا أسمِعنا يا أستاذ وأطربنا!

كان متوتراً جداً، والدقيقة تمرّ عليه كأنها ساعات. أما هي فكانت تتمنى أن تتوقف الكرة الأرضية عن الدوران، وأن يظل أمامها إلى ما لا نهاية.

بدأ يقرأ بصوت عالٍ. قصيدة تلو الأخرى. كانت تحرك شفتيها من تحت الخمار تجاريه. حتى لقد خفّت مشاكسة جنينها، طرباً لذكرياتها وحنينها. أغلب القصائد التي قرأها كانت إهداءات لها أثناء دراستهما معاً.

وصل صديقه إلى جوار مقر عمله، فترجَّلَ من الباص، بينما تابع هو طريقه نحو دار النشر. أثناء ترتيب أوراقه لمحت حبيبته عنوان الديوان؛ فإذا به اسمها.

ترجّـل من الباص. ترجّلـت هي أيضاً وراحت تتبعـه. وفي حقيبتها ورقة بيضاء ملفوفة بها الأشعة الطبية الخاصة بها. أخذتها وطوتها:

- شهاب!

نادته... فالتفت متعجباً!

- لقد سقطت منك هذه الورقة!

تأملها، وقد شعر بشيء يشـده إليها. راح يحدث نفسه: هل أصبحتَ تراها في كل النساء؟! وهل أصواتهن صوتها؟!... أقنع نفسه بأنه ما يزال تحت تأثير صدمة فراقها، وأراد أن يخرج من وهمه ويعود إلى الواقع.

شـكرها، وبشـعور لا إرادي خلعت القفاز من يدهـا وصافحته!... كأنها تضمه إلى صدرها! سرت كهرباء شديدة في عروقه، وتملكته مشاعر ليست غريبة عليه؛ ولكنه حاول أن يتجاهلها.

- أتمنى أن أراكَ مرة أخرى

قالتها بصوت شجي حزين، وانصرفت. ناداها:

- كيف عرفتِ اسمي؟!!

نظرت إليه بعينين باسمتين:

- من الورقة.

مشى قليلاً، ونظر في الورقة. كانت بيضاء ناصعة!

لم يصدق أنها هي! نظر وراءه فوجدها قد تجاوزت الشارع الآخر متجهة إلى السوق. ناداها بأعلى صوته، وراح يلحق بها، مفتشاً عنها في الوجوه، لكنها اختفت وتاهت في الزحام.

2012 /4 /22

لم تكن وحدها

لا يهم مع من كانت، أو من تسبب بالحادث!

كل همه أن تشفى، وأن تكون بخير. أحضر لها أمهر الأطباء في المدينة. لم يكـن غنيـاً أو ذا سـلطة أو جاه. لقد بـاع قطعـة الأرض الوحيدة التي ورثها عن والده ليوفر ثمن علاجها.

كثيراً ما كانت تحرضه على بيعها. كان يرفض، ويسـتمع لصراخها في أذنيه، يتأمل شـفتيها الصغيرتين تتحركان بغضـب وانفعال، فيراها أكثر جمالاً.

لم يصرخ في وجهها قط. هي أيضاً كانت كلما غضبت تعود فتعتذر له؛

ولكنها تجد أن قطعة الأرض حلها الوحيد لكي "تثب على وش الدنيا".

كان صبـوراً حليماً، أدرى منها بالحياة وبغدر الزمن؛ أو أن هذه كانت مزاعمه. في الحقيقة، لم يبقَ شيئاً يذكره بعائلته سوى هذه الأرض.

كان أبـوه فلاحـاً بسـيطاً. أمه ماتت عنـد ولادته، فربّتـه عمته، التي رفضـت أن تتزوج، لكي ترعـى أخاها الكبير وابنـه، على الرغـم من محاولات والده تزويجها.

هذه الأرض هي صلته الوحيدة بماضيه، وإذا فقدها سيفقد الماضي.

أسـبوع كامـل لم يفارقها لحظة واحـدة، وهي في غيبوبـة، وتُجرى لها عملية جراحية تلو أخرى. كان الحادث كبيراً، فقد أُصيبت بضربة شديدة في الدماغ.

حينما كان في البيت يسـتعد للاحتفال بعيـد ميلادها، كانت تحتـفل بالمناسبة نفسها مع رجل آخر تعرفت إليه عن طريق الشبكة الإلكترونية، نظراً لانشـغالات زوجها المهنية، وتسلية لأوقات فراغها. رفضت مراراً وتكراراً الخروج مع الرجل الغريب؛ لكنها وافقت في النهاية.

ترددت كثيراً، وكانت خائفة. لكنه فتنها بثقته بنفسـه وأسلوبه الناعم الرقيق...

كثيراً توقف بسيارته الفاخرة، تحت شباك بيتها، أياماً ولياليَ. أعاد لها صباها، وجدد روحها.

قبل عيد ميلادها بأسبوع، أصرّ عليها أن تشاركه احتفالها؛ ولكنها كانت ترفض بشدة، فهي تعلم أن زوجها لن ينسى هذا اليوم أبداً، وأنه سيجهز لها مفاجأة في المساء. فطلب منها أن يحتفل معها في الصباح، وأن يتركها في المساء لزوجها.

تقبّلت الأمر واستسلمت له.

كانت "العزومة" في أفخم مطعم في المدينة. استقبلها النادل وذهب بها إلى جناح العائلات في غرفة خاصة. قام من مقعده وطبع قبلة على يدها:

- كل عام وأنتِ بخير!

استطاع أن يُهدّئ من قلقها وتوترها. كان هو سيد الموقف والمسيطر عليه؛ بأسلوبه الرقيق وحديثه الشيّق المبهر، ناهيك عن كاريزمته الساحرة.

شربا قهوة الصباح، وتناولا الإفطار، ثم "تورتة" عيد الميلاد، والتي وضع فيها شمعة واحدة. سألته:

- لماذا شمعة واحدة؟!

– لأنه العيد الأول الذي أحتفل به معك.

في الظهيرة، اتصلت بزوجها تخبره بأنها ستذهب للتسوق.

فرح زوجها بهذا الخبر؛ إذ أُتيح له أن يذهب إلى البيت ليستعد للاحتفال.

تأخرت كثيراً.

حاول الاتصال بها عبر هاتفها؛ لكنه مغلق. اتصل ببعض زميلاتها؛ ولكنهن لا يعرفن شيئاً عنها. عرف أيضاً أنها لم تذهب إلى العمل.

في العاشرة مساءً، تلقى اتصالاً من المشفى يخبره بأنها تعرضت لحادث مرير، وأن حالتها الصحية غير جيدة.

كتم على جرحه، ووقف بجانبها، إلى أن استردت عافيتها.

ذهب إلى مكتب الأمانات الخاص بالمشفى، ووضع لها ما تبقى من مبلغ الماضي... تنازل لها عن الحاضر، ومضى إلى المستقبل بقلب جريح.

2012 /4 /22

الخيانة

كيـف لي أن أضمد جراحكِ التي نزفت طويلاً... من خيانة تصنعتها من أجلكِ؟!

كنـت أعلم بقدومكِ، فأدخلت امـرأة إلى غرفة نومكِ؛ ولكنها لم تطأ سريركِ.

كيف لي أن أُعلمكِ أن قدومكِ لم يكن مفاجأة لي؟!

فأنتِ لا تستطيعين أن تبتعدي عني لأكثر من يومين؛ ولكنك قسوتِ قليلاً فتأخرتِ أسبوعاً كاملاً؛ ويا له من أسبوع موحش مرّ!

أسبوع كامل وأنا أحترق بعذاب فراقك، ومرارة قرار اتخذته.

ما إن رأيتِها لم تتمالكي نفسكِ. ثرتِ ثورة النسر المجروح. هكذا عهدت كبرياءك دوماً، أيتها الحبيبة الغالية! ولقد كان هذا آخر وداع؛ ويا لقسوة الوداع!!

لم يتغير أي شيء؛ فبيتنا الصغير كما هو: المطبخ، المجلس، غرفة نومك، ملابسك التي تركتها، بعض مساحيق وجهك... كل شيء كما هو؛ ما عدا ذلك الكرسي الذي وجدتيها نائمة عليه، فقد كسرتُهُ بيدي وأحرقته بدموع عيني.

كيف لي أن أضمد جراحكِ التي نزفت طويلاً من خيانة لم تقع، وعَزَلَتكِ عني عامين كاملين؟! ظننتُ أنها لن تعزلكِ عن العالم، وستصبحين أمّاً لطفل جميل، وزوجةً لرجل غيري يشاركني حبكِ، ويقاسمكِ آلامكِ.

لم أفصح لكِ عن مرضي الخبيث، حتى لا أموت بين أحضانكِ وتعيشي أسيرة الحزن، حاجبةً عنكِ الحياة!

فكيف يأخذكِ القدر قبلي إلى عالم الأموات في حادث مفاجئ، وموصية وأنتِ على فراش الموت بألا أحضر جنازتكِ أو أزور قبركِ قط!

فلانتين

ورقة العشرين درهماً هي كل ما يملك، إضافة إلى الدرهم المعدني.

إنه عيد ميلاد حبه الأول، يوم تعرّف إليها منذ أكثر من سنتين. خرج من المنزل مسرعاً، مرتدياً أجمل ما لديه من ملابس، متذكراً لقاءه بها في السنة الماضية.

– هل تذكرين حبيبتي؟! أول تصريح لي بحُبكِ كان في مثل هذا اليوم! لذا لن أتأخر لحظة واحدة عن حبكِ، ستظلين أنتِ تلك الشمعة التي تنير لي حياتي!

يتذكر دموعها وفرحتها به، وقسمها ووعدها له بأنها لن تنساه أبداً،

وأن حبهـا لـه لا حدود له، ولا يمكن لأحد على وجـه الكون أن يُبعدها عنه.

ظـل يحمـل حديثها معـه، ويتذكـر لقاءاتهمـا إلى أن وصـل إلى محل الزهور. قال البائع:

- قيمة الوردة الحمراء 25 درهماً.

- لماذا؟! (متفاجئاً).

- إنه يوم الفلانتين سيدي (مبتسماً).

حاول أن يفاوضه على سعرها. وبعد نقاش طويل، استطاع أن يخفّض خمسة دراهم فقط.

رغـم ذلك، تراجـع عن شرائـها؛ هل سـيذهب من "القصيص" إلى حديقـة "الصفا" على قدميه، والمسـافة تقارب 18 كيلومـتراً؟! إذا فعلها فسـيتأخر عن موعده الذي بالكاد حصل عليه من حبيبته، بعد انقطاعها عنه لعدة شـهور، وبعد العديد من المحـاولات من جهته وافقت على أن تقابله ولمدة نصف ساعة فقط!

خـرج من المحـل خائب الأمـل، متجهاً إلى مـترو الاتصالات. أخذ تذكـرة الذهاب بنصف قيمة الورقـة النقدية التي بحوزتـه. المترو ممتلئ

بجنسيات مختلفة. معظم النساء يلبسن الألوان الزاهية، وفي أيديهن ورود وباقات حمراء، أو هدايا مغلفة وجميلة.

وصل إلى المحطة؛ ولكنه خجل من أن يدخل الحديقة بيدين خاويتين. ماذا يقدم لحبيبته وهو لا يملك سوى عشرة دراهم والدرهم المعدني؟!

خطرت له فكرة انفرجت لها أساريره.

اتجه مسرعاً إلى سور الحديقة، وقفز فوقه، حتى لا يدفع الرسوم الزهيدة للدخول، وليوفر ما أمكن من المال لها. ذهب مهرولاً يبحث في أرجاء الحديقة عن حجر صلد. وبعد جهد، وجد ضالته قرب بحيرة البط، ثم ذهب إلى أقصى الحديقة، وأخرج الدرهم من جيبه وأخذ يضربه بالحجر حتى جعل له نتوءات حادة، استطاع أن يجرح بها سبابته اليمنى، وكتب بدمه على الورقة النقدية: "أحبك"، وظل يلوّح بالورقة يمنة ويسرة، ويدور حول نفسه مثل درويش هائم بمعشوقه، إلى أن جَفّ حبر دمه، ثم اتجه إلى مكان لقائهما ظاناً أنه تأخر عليها.

انتظرها ما يقارب الساعة، حتى بدأ يتسلل اليأس إلى قلبه.

فجأة ظهرت أمامه. جلست بالقرب منه، دون أن تصافحه أو تلحظ المنديل الذي لفّه حول إصبعه.

قالــت له إنها جاءت بناءً على رغبته وإصراره. كانت تتحدث دون أن تنظر إليه، منشغلة بالنظر إلى أطفال كانوا يلعبون في الجوار.

قال لها:

– أتذكريــن؟! قبل ســنتين قررنا أن يكون عيد الحــب هو عيد ميلاد حبنا، لكي يحتفل العالم بأسره من أجلنا أنا وأنت فقط!

لم تبــالِ بكلامه كأنها لم تســمع شــيئاً، بــل زاد تركيزها عــلى الأطفال اللاهــين جوارهما، متبســمة لهم، متنقلــة بنظرها بينهم وبين الســاعة في يدها.

اعتراه لذلك حزن شــديد، تَحوَّلت معه الأشجار التي حوله إلى سياط تَجلِد ذكرياته معها، وسور الحديقة حبلاً مشدوداً ملتفاً حول عنقه. وضع الورقة النقدية بين يديها، وانصرف.

عندما رأت الورقة في يدها رمتها سريعاً، خشية أن تلطخ يدها وثوبها بدمــه، ثم نهضت، وغادرت بخطوات ثابتة وسريعة إلى الباب الآخر من الحديقة.

2016 /2 /17

لا مبالاة

ينتظر مصعد مركز السيتي سنتر (ديرة)؛ فهو على عجلة من أمره. ينفتح باب المصعد، وتخرج امرأة مسرعة فيصطدم بها. يعتذر لها سريعاً، ويدخل. تناديه:

- هشام!

يُوقفِ المصعد بيديه. ينظر إليها. تخلع نظارتها السوداء، وتبتسم له. يخرج من المصعد، فتعانقه عناقاً طويلاً. أمسك بيدها وذهبا عبر السلالم المتحركة إلى المترو. راحا يتنقلان من مكان إلى مكان، ومن محطة إلى محطة، ومن ذكريات إلى ذكريات أخرى... تتلامس أكتافهما تارة، وتارة أخرى يضعان يديهما فوق يدي بعضهما.

ثلاث سنوات لم يرَ أحدهما الآخر.

يدخلان السينما. تهمس في أذنه:

- لماذا لم تحضر ذلك المساء؟!

يتأملها بعينين دافئتين. يقرب شفتيه من خدها. تشعر بحرارة أنفاسه. يقبلها ويضمها إلى صدره.

بعد انتهاء الفيلم، وعند خروجهما، تتوقف فجأة وتكرر سؤالها:

- لماذا لم أرك بعدها؟! ولماذا كان هاتفك الخلوي مغلقاً؟!

أمسك يديها بحنان وقربهما من شفتيه بهدف الاعتذار.

قبِلت اعتذاره، وضمته إلى صدرها بشدة.

- لقد اشتقت إليك كثيراً (قالتها بنبرة شوق وحنين).

- وأنا كذلك.

يذهبان معاً إلى أحد المطاعم في خور دبي، ليتناولا العشاء هناك. يأتي النادل. ينظر إليها هشام:

- هل تذكرين وجبة عشائي المفضل؟!

بدورها تطلب من النادل طبقين من السمك المشوي وبعض السلطات.

يتأملها هشام مدهوشاً:

- **ســهام!** ما تزالين تذكرين كل تلك التفاصيل وكأنه الأمس!

فجأة، جمـد وجهها وأصبح خالياً من أي تعبير! لا شيء فيها يتحرك، سوى نبضات قلبها تسارعت، حتى أوشك على التوقف.

تُرجِع ظهرها إلى الوراء. تتأمله والدموع ملء عينيها.

تحمل حقيبتها وتنصرف. حاول أن يوقفها، فنهرته بشدة ومضت.

بقـي جامداً لا يعرف سرّ انصراف (**منى**) المفاجئ، ومحاولاً أيضاً أن يتذكر لِمَاذا لم يحضر في آخر موعد لهما!

2012 /3 /20

هستيريا

يدخـل مسرعاً إلى محـل المجوهـرات، بكامـل أناقته وأبهتـه، مُقدماً السـاعة الذهبية الباهظـة الثمن، مع ورقة الضـمان، ليقوموا بإصلاحها. يطلبون منه مهلة حتى الغد؛ ولكنه يصر على عدم الذهاب إلا بعد أن يتم إصلاحها، وبأسرع وقت ممكن. البائع يسـتدعي تقني السـاعات، الذي تأمل الساعة ثم قال:

– نعم، بإمكاني إصلاحها سريعاً، وبإمكانك العودة إلينا بعد عشرين دقيقة.

إلا أن "عُمَر" يصر على الانتظار حتى يتم إصلاحها.

يُحضر له البائع كرسياً، مع قهوة عربية وتَمْر.

تدخل فتاة شابة بملابس متواضعة، ولكنها أنيقة وجميلة. يحاول لفت انتباهها، معلناً بصوت عالٍ احتجاجه على سوء الخدمة وطول الانتظار:

– أرجوك! لديّ اجتماع مع موظفيَّ، ولقد تأخرت، وأنا رجل أحترم المواعيد، وهو اجتماع هام، ولا أستطيع تأجيله.

يعتذر منه البائع بكل أدب وذوق.

وقفت بالقرب منه، بعدما سلّمت هاتفها للبائع، ليتلقى عبره مكالمة ببعض التعليمات. أوحى له ذلك بأن شخصاً ما أرسلها إلى هنا لاستلام بضاعة.

قدم لها البائع عقدين جميلين يخيّرها بين أحدهما. بقيت حائرة بين العقدين، مما أتاح للسيد عمر فرصة عرض خدماته، ومساعدتها في اختيار العقد المناسب.

– أتمنى لو كنتُ أحمل دفتر الشيكات؛ لقدَّمتُ لكِ هذا العقد هدية مني، فأنا رَجُل أقدّر الجَمال.

– شكراً لكَ، ولذوقكَ! فهذا العقد ليس لي، وإنما هو لصديقة لي طلبت مني أن آتي معها لأساعدها في اختيار أحد العقدين؛ ولكنها

تأخرت نظراً لزحمة المرور، بالإضافة إلى أن سعره مدفوع مقدماً.

استلمت العقد تزامناً مع استلامه الساعة، وغادرا المحل معاً، فوجدها تتأمل المحلات والمول من أعلى إلى أسفل، ما أوحى له بأنها غريبة.

- يبدو أنها المرة الأولى التي ترين فيها مول دبي!

- نعم، فأنا غريبة عن هذا المكان.

- هل أنتِ في زيارة إلى الإمارات؟

- لا، بل أتيت في إقامة عمل.

- جيد. أتمنى لك طيب الإقامة هنا.

- شكراً جزيلاً.

- هل تمانعين لو دعوتكِ لفنجان قهوة حتى تأتي صديقتك؟

- ولكني سمعتكَ تتحدث بأن لديك اجتماعاً مهماً وعاجلاً.

- لا بأس في ذلك، فغداً صباحاً سيكون هناك اجتماع طويل وتغييرات جذرية في الشركة. فلا بأس إن أجَّلت اجتماع اليوم.

أستأذنها أن يرسل رسالة نصية إلى سكرتيرته ليلغي الاجتماع، ثم ذهبا إلى مقهى "بابا روتي"، المطل على حلبة التزلج في المول.

كان ممتعاً في حديثه، ومر الوقت دون أن تشعر، حتى جاءتها مكالمة من صديقتها تعتذر منها لعدم قدرتها على المجيء، مضطرة إلى العودة للعمل بعد انتهاء فترة استراحة الظهيرة، وترجوها أن تذهب إلى مول الإمارات، القريب من مقر عملها، وتنتظرها هناك إلى حين انتهاء دوامها.

– هل تسمحين لي بأن أوصلكِ إلى هناك؟! فأنا سائق جيد، ومن حسن الحظ أنني اليوم أتيت بسيارتي من الوكالة بعد تغيير الزيت والفلتر وكافة إجراءات السلامة.

ثم أضاف ممازحاً:

– وبإمكانك الاحتفاظ أيضاً بأجرة التاكسي!

أوصلها إلى هناك، ثم ودعها بكل احترام وتقدير، وشكرها على هذا اليوم المميز له، ودون أن يطلب منها رقم هاتفها أو اللقاء بها مجدداً، مما زادها استغراباً وتعجباً، وإعجاباً أيضاً، وشعرت بإنسانيته وتعامله الراقي والنبيل.

في صباح اليوم التالي، رنَّ هاتف مكتبه. وبعد أن رد على الهاتف، ذهب مسرعاً إلى المكتب المجاور، وطرق الباب بهدوء.

– تفضّل يا عُمر! (قال المدير).

كان معه ضيفة في المكتب، وأراد أن يعرفها إليه:

– هذه ناهد، ابنتي،... وهي التي ستكون المسؤولة عن فرع الشركة في دبي.

يلتفت إليها، وإذا بها فتاة الأمس. يتسمر غير مصدق ما تراه عيناه. هي أيضاً أخذتها الدهشة!

– هل قاعة الاجتماعات جاهزة؟ (قال المدير).

أجاب عمر متلعثماً:

– جاهزة يا سيدي!

ووضع مفتاح سيارة المدير، بعد أن أعادها من الصيانة، والتي لم تكن ناهد قد رأتها من قبل، بالإضافة إلى علبة الساعة مع فاتورة الضمان.

شكره المدير على سرعة تنفيذ المهمة، ومتفاخراً به أمام ابنته.

خرج من المكتب سريعاً، وكأن الأرض انشقت وابتلعته.

كانت ناهد في حالة سكون تام وذهن شارد.

أثناء الاجتماع، كانت الطاولة كبيرة، وتضم أكثر من 12 عضواً، مُرتَّبين حولها حسب مناصبهم جوار المديرة التي ترأست الاجتماع. كان عمر في الكرسي الأخير.

بدأ الاجتماع، والتقت عيونهما، فلم يتمالكا نفسيهما من الضحك. ظلا يضحكان بشكل هيستيري، حتى أضحكا بقية الحاضرين.

2016 /3 /7

غــيرة

على الرغم من طـول اليوم والتعب إلا أنه كان يدب حيوية ونشاطاً. لم يستسلم للإرهاق أو التعب. كان شوقه إليها أكبر من معاناة رحلته.

فها هو عائد بعد منتصف الليل. يفتح باب شـقته بهدوء، ظنّاً منه أنها نائمة؛ لكنه يرى جميع الأنوار مُضاءة، وصوت موسيقى كلاسيكية هادئة كانت دائماً تحب أن تسمعها في لياليها الحمراء!

يتسلل الشك إلى قلبه فما كان منه إلا أن قرر التلصص عليها.

مشى بهدوء تام يبحث عنها أو عن شخص آخر لا يعرفه. يرى غرفة نومها مفتوحة قليلاً، ويجدها على سريرها شـبه عارية تُقبِّل الصورة التي

في يدها، وتارة أخرى تضمها إلى صدرها، وتتمتم بكلمات شوق وغزل، لم تشعر بقدومه، فقد كانت هي الأخرى في عالم آخر.

اشـتعلت النيران في قلبه. لم يتمالك نفسـه. هجم عليها كنسر جريح. أطبـق على رقبتها بكـل مـا لديه من قـوة بعـد بضـع ثـوان من الغضب وصـارت حبيبته -التي لم يحب غيرها- جثة هامـدة!، ودون أن يعلم أن صديقه اتصل بها صباحاً ليخبرها بعودة حبيبها من السفر اليوم.

ذهـب سريعاً إلى المطبخ وعاد يحمل سـكيناً. أطفأ كافة الأنوار. أغلق جميع الغرف وترك باب الشقة مفتوحاً في انتظار المجهول.

2012 /3 /20

الهاتف رقم (1)

نظرة واحدة منها أعادت له ذكريات الماضي وجعلت قلبه يخفق حنيناً.
ابتسم لها ابتسامة موجعة أعادت لها ذلك الشوق الذي يحجبه الكبرياء.

لم يكـن لقاؤهمـا صدفة؛ فقد جاءت وهي تعلم جيـداً أنه لم يبرح هذا المكان منذ فراقهمـا.

كانـت متأكدة أنه سـيعود إليها ولن يقوى عـلى فراقها. هكذا عهدته دائماً، ذليلاً في حبه لها.

لكنه لم يعد، وطالت مدة الفراق الذي لم يرهقها كثيراً.

وعندمـا أتـت ولم تجده في آخـر موعد لهما، اسـتاءت كثـيراً؛ ولكنها

لم تحـاول أن تتصل بـه أو تعاتبه أو تعرف السـبب، بـل زادت في تجاهله واحتقاره، ظانة أنه سـيعود إليها، وحينها لن تقبل اعتذاره، ولن تسـمح له إطلاقا أن يعود إليها، ولن تضيف اسـمه إلى قائمة الأسـماء في الهاتف رقم (1).

في الفـترة الأخيرة، أهملته تماماً. لم تكن تعـيره اهتماماً. كانت تتحجج بدراسـتها الجامعية وصعوبة المنهج. لم تعد تراسـله أو ترد على مكالماته. وعندما تلتقي به كانت تهديه ابتسـامة صفراء، خالية من المشاعر، ونظرة باهتـة من عينـين شـاحبتين، وبثياب غير أنيقة، وشـعر غـير مصفوف، وبمظهر يوحي بما هي فيه من الأرق والتعب. يرقُّ لحالها، ويزيد إشـفاقاً عليها.

صدفة، رآها في أحد الشـوارع. كانـت في أوج أناقتها وجمالها. اتصل بها. نظـرت إلى الهاتف، ثم واصلـت طريقها، دون أن ترُد. وفي المسـاء، أرسلت إليه رسالة تعتذر منه، إنها تعاني من وعكة صحية.

أسرَّها في نفسـه ولم يكاشـفها بأكاذيبها المتكررة، بـل اختلق لها ألف عذر وعذر.

وذات مسـاء، تواعـدا أن يخرجـا معاً. ارتـدى قميصاً أنيقـاً، ولبس سـاعته التي أهدته إياها، وزين شاربه ولحيته بالطريقة التي تحبها. كانت

الابتسامة لا تفارق شفتيها. وكان يشعر برقص دقات قلبها الطفولي. وعند جلوسهما في المقهى على البحر، وضعت -بكل ثقة- هاتفها الخلوي، الذي لا يحمل كلمة سر أو بصمة، بالقرب منه، وتركت حقيبتها على الطاولة. وعند ذهابها إلى الحمام، سرت إلى قلبه ذبذبات اهتزازية من حقيبتها. تجرأ وفتح الحقيبة، فوجد هاتفاً آخر يرن؛ لكنه لم يرد. فتح الهاتف فوجد رسائل غرامية من أكثر من رقم، وحسابات أخرى على وسائل التواصل الاجتماعي غير الحسابات التي يعرفها، وعالماً آخر غير العالم الذي كان فيه. أعاد الهاتف إلى مكانه.

عادت؛ ولكنها لم تجده.

وها هي اليوم تدنو منه بخطوات ثابتة، ورائحة عطر غير مألوفة لديه.

ظلت واقفة، وقالت بصوت غير معهود:

- لم أكن أتوقع أن أراك هنا! ولكنها فرصة كبيرة لأخبرك بأنك تغيرت كثيراً.

وأشاحت بوجهها عنه، وسارت بخطوات بطيئة تترقب أن يتبعها أو يناديها. حين بلغت نهاية الرواق، التفتت لتجد كرسيه خالياً.

ظل يمشي على قدميه متجاوزاً سيارته والمنطقة برمتها، يتذكر صورتها القديمة وشعرها الحريري ينساب على وجهه وهي تهمس في أذنيه: "عندما تضيق بي الدنيا لا ملجأ لي سواك".

ظل يجر ذكرياتها معه منذ أن كانت عصفورة رقيقة بلا أجنحة إلى أن تعلمت الطيران بين ضلعيه، حتى أصبحت نسراً كاسراً حملت قلبه إلى مكان شاهق ورمته.

استقل سيارة أجرة، وسأل السائق:

- إلى أين أنت ذاهب؟

نظر إليه السائق وأجاب متعجباً:

- أنا هنا لأنقلك إلى حيثما تريد سيدي!

- هل بالإمكان أن تأخذني إلى الجحيم؟!

نظر إليه السائق بابتسامة عريضة وانطلق بالسيارة قائلاً:

- أفضل من ينقلك إليه هن النساء.

2016 /8 /4

لعنة عطا الله

بين ليلة وضحاها، ظهر رجل شديد السواد، أشعث الرأس، ذو نابين طويلين وأسنان ناصعة البياض، طويل القامة، عريض المنكبين، بارق العينين، له كف عريضة، حافي القدمين، تكونت طبقة جلد قاسية أسفل قدميه تجعله يدوس بها كل شيء دون أن يُخدش أو يتألم، أملس الجسم، عاري الجسد، لا يرتدي شيئاً سوى قطعة قماش يغطي بها سوأته.

عطا الله. لم يكن هذا اسمه؛ ولكن هذا هو اللقب الذي سماه به أهل الوادي. فعلى الرغم من أن المدينة مرتفعة وباردة في الشتاء؛ إلا أن هذا الوادي، "وادي النسل"، الذي يبعد عنها 50 كيلومتراً، عكسها تماماً؛ فهو يمتاز بالدفء والجو المعتدل، إنه عبارة عن سهل عميق تحيط به الجبال

من جميع الجهات، ناهيك عن الأشجار الضخمة والفواكه المتنوعة والثمار والمياه العذبة والشلالات التي تزيد من حلاوة الجو ونقائه.

منذ أن جاء عطا الله، أصبح الوادي في أمان من الوحوش والحيوانات الضارة والمفترسة. لم يكن يحمل بندقية أو خنجراً، بل كان يتصارع مع الذئاب والضباع وكأنه شمشون الجبار. كان يطارد أصواتها في الليل، وحده، وكان يطلق زئيراً كزئير الأسد.

وعندما يصبح الأهالي، كانوا يجدون رؤوس الضباع معلقة على الأشجار الضخمة.

تناقلوا عنه القصص والأساطير. يقولون إنه أتى من وادي الموت، وإنه يتغذى على الأفاعي والحيوانات المفترسة، ويأكل اللحم النيئ وأوراق الشجر.

كان قليل الكلام، كثير الابتسام، يحبه الجميع ويفتخرون به. وكذلك الأطفال الصغار يلعبون معه ويتنزهون، حتى إن آباءهم وأمهاتهم كانوا يسمحون لهم بالذهاب معه في نزهات إلى مناطق بعيدة.

الشيخ طاهر، أحد وجهاء الوادي، والذي يملك نصفه تقريباً، أحب عطا كثيراً، وأراد أن يستخدمه. أعطاه غرفة مجهزة بمستلزماتها؛ ولكنه

كان ينام على الأرض، أو على السطح، أو يترك الشباك والباب مفتوحين؛ فهو ابن الطبيعة.

زادت العلاقة بينه وبين الشيخ طاهر. كانا يتسامران معاً، ويذهبان للصيد معاً، ويزرعان ويفلحان معاً... وفي أحيان كثيرة كان يذهب به إلى العاصمة، حتى أنه كان يحضر نقاشات واجتماعات علية القوم.

قرر الشيخ طاهر أن يزوجه بواحدة من نساء الوادي. طرق الأبواب ليقبلوا بعطا زوجاً، وعرض ثلث أملاكه؛ ولكن دون جدوى؛ فهم يزعمون أنهم لا يعرفون أصله وفصله، كما أن هيئته تلك لا تساعد على قبوله.

من هنا تغيرت الأحوال وتبدلت؛ بدأوا يشعرون بخطورته على بناتهم ونسائهم، وراحوا يتجنبونه... ودار كثير من الشجارات خلف جدران البيوت وأمامها. حتى الأطفال والأولاد صاروا يُعاقَبون إن لعبوا أو اقتربوا منه...

تحول عطا الله إلى مرض مُعدٍ لكل مَنْ يقترب منه. وعلى الرغم من قوته وجبروته؛ إلا أن قلبه كان مثل قلوب الأطفال، صافياً، ناصعاً، تخدشه كلمة غير لائقة لو مرت على مسمعه مع نسمة الهواء.

صار انطوائياً، وبدأت الابتسامة تختفي من محياه. ذبلت عيناه البراقتان والمتشبثتان بحب الحياة.

رحل عطا عن الوادي. سكن بعيداً. وفي منتصف الليل كانوا يسمعون نواحه، يُبكي النساء والأطفال، ويخيف الرجال.

استمر هذا الحال شهوراً طويلة. وذات ليلة انقطع النواح. ازداد خوفهم. شعروا بأن هذا الصمت سيكون بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. لم يجدوا حلاً للتخلص من هذا الكابوس سوى الموت، الموت لعطا الله.

بحث عنه الشيخ طاهر في كل مكان، يريد أن يحذره من نواياهم ومن قلقهم المزعوم... لكنه لم يجده؛ مثلما أتى إليهم فجأة رحل عنهم فجأة أيضاً.

البعض قال إنه سوف يعود مثل الطوفان، ذاهباً بالأخضر واليابس... البعض الآخر قال إنه مات وأكلته الكلاب الضالة والحيوانات المفترسة... آخرون قالوا إن العرَّافة أرسلته مع رؤوس الثيران إلى وادي الموت...

استمر خوفهم وقلقهم لسنوات طويلة، تحول خلالها إلى روح شريرة تسكن الوادي؛ فعندما تحل عليهم المصائب والكوارث يظنون أنها لعنة من لعنات عطا الله.

سيد تكنولوجيا

السيد تكنولوجيا...

من رجال الأعمال المثيرين للجدل، وأشهرهم على الإطلاق. يعرفه القاصي والداني في هذه المدينة المتطورة بكل تقنياتها واحتياجاتها.

سُمِّي بـ"السيد تكنولوجيا" بسبب حبه للتطور واطّلاعه على كل جديد في التقنيات الحديثة، بل هو أيضاً على اتصال بأكبر المدن العالمية المهتمة بهذا الجانب، ولاسيما المدن اليابانية.

وبالتنسيق مع أكبر الخبراء في العالم، ومن بلدان شتى، قام السيد تكنولوجيا بتصميم قصر ضخم بأحدث الأنظمة الحديثة: تنفيذ كافة الأوامر عن طريق الصوت.

استطاع أن يصمم ويبني القصر بطريقة ذكية جداً؛ فكل شيء يعمل تلقائياً استجابة لصوت صاحبه فقط، ومن يسمح السيد تكنولوجيا بإضافة صوته عبر النظام الخاص بهذه التقنية الحديثة.

غرفة النوم تفتح دواليبها وأدراجها عن طريق الصوت. السرير يتحرك في كل الاتجاهات ويرتفع ويهبط عن طريق الصوت. طاولة الطعام ترتفع وتهبط حسب الطلب. الكراسي تتحرك في كل الاتجاهات. أنابيب المياه والتحكم في سرعة انسيابها ودرجة حرارتها أيضاً. ماكينة الحلاقة. التكييف. الستائر. الشبابيك. الأبواب. ثلاجة المطبخ. البوتاجاز. حتى مشط الشعر له مقبض آلي يتحرك في كافة الاتجاهات، وأسنانه تزداد وتنقص حسب الطلب... إلخ.

تدريجياً، استغنى السيد تكنولوجيا عن الخدم والعمال والمزارعين في القصر... واستعان برجل آلي يقوم بتنفيذ كافة المهام، حتى الطبخ. ثم أدخل صوت الرجل الآلي إلى نظام القصر لتستجيب له كافة أدوات المنزل.

استطاع السيد تكنولوجيا أن يسلط عليه الأضواء بهذا التصميم المعماري المتميز، والذي يُعتبر تحفة فنية أبهرت الكثير من المهتمين، وغير المهتمين أيضاً.

كما استغنى عن سائقه وسياراته، وجلب سيارة بدون سائق، تتعرف إلى صاحبها صوتياً، وتذهب به إلى أي مكان؛ فهي تعرف طريقها جيداً، وتحترم إشارات المرور والمشاة ومواقف السيارات...

بعد فترة ليست طويلة، فكّر أن يطبق هذا النظام في مصنعه وشركاته، ويستغني عن كافة الموظفين والعمال. راح يعمل ليل نهار على دراسة وتطوير المشروع مع خبراء ومختصين.

وذات صباح، استيقظ السيد تكنولوجيا وهو يشعر بصداع خفيف، وبداية إنفلونزا بسيطة. لكنه قاوم التعب، وذهب ليباشر عمله كالمعتاد. وفي المساء ذهب إلى حفلة عشاء في فندق "خمسة نجوم" من فنادق المدينة. فزاد إرهاقه وتعبه هناك.

وعند مغادرته الفندق. فتح باب السيارة بإبهامه، وركب في المقعد الخلفي، أمرها بالتحرك إلى البيت بالسرعة التي حددها. لكن السيارة لم تستجب. كرر السيد تكنولوجيا الأمر، بصوت مصحوب بسعال طفيف وانسداد بسيط في الأنف. وبعد عدة محاولات استجابت السيارة للأمر.

وبالكاد استطاع باب القصر أن يتعرف إلى صوته.

لم يُعِر السيد تكنولوجيا هذه المواقف أي اهتمام. كان الإرهاق والتعب

أكبر من أن يفكر في هذه الإشكالية. وكان على يقين أنه سيسترد صحته في الصباح.

في اليوم التالي، لم يستطع النهوض من السرير، فقد ازداد تعبه. حاول أن ينادي خادمه الآلي المميز؛ ولكن الخادم لم يتعرف إلى صوته إطلاقاً.

اضطر السيد تكنولجيا إلى النزول من السرير المرتفع، الذي رفض أن ينخفض منذ ليلة أمس.

وبما أنه يسكن وحيداً، مع خادمه الآلي المطيع، فقد كانت كافة أبواب الغرف مفتوحة.

كان يشعر بتعب شديد، وبالعطش والجوع. ذهب إلى المطبخ، كي يشرب ويتناول بعض المسكنات. كان كل شيء مرتباً وفي مكانه، ولا يوجد شيء للأكل أو للشرب...

أصدر أمراً للثلاجة بأن تفتح؛ لكنها لم تستجب. مد يده تحت صنبور الماء لعله يأتيه ولو بقطرة...

بدأ يصرخ صراخاً مبحوحاً، محاولاً تغيير صوته بكافة الطرق، دون جدوى، حتى أنهكه التعب، وسقط في مكانه أرضاً. كان خادمه الآلي واقفاً في ركنه المعتاد، ينظر إليه بصمت، منتظراً منه أمراً ينفذه.

يوم كامـل انقضى والسـيد تكنولوجيا مُغمى عليه، قبل أن يسـتيقظ شاحب الوجه منكوش الشعر واللحية نابتة على ذقنه.

بدا عليه الإرهاق الشديد. حاول أن يقف على رجليه؛ ولكنه لم يستطع. استند إلى الحائط حتى وصل إلى سلم الطابق الثاني. ظل يصعد الدرجات بصعوبة، متجهـاً إلى غرفة الكونترول، يريد إبطـال هذه الخاصية، أو أن يضيـف صوتـه في حالته هـذه إلى النظام، ليتمكن مـن الخروج من قصر الرعب هذا الذي هو فيه.

بعد جهد جهيد، وصل السـيد تكنولوجيا إلى غرفة الكونترول، وهي الوحيدة في القصر التي تُفتح ببصمة اليد. فتح الغرفة، وحاول أن يضيف الصوت الجديد إلى النظـام؛ ولكن كان عليه أن يتحدث بصوته الطبيعي حتى يستجيب النظام ويتمكن من تشغيله.

ازدادت المعاناة. سـقط على الأرض ولم يسـتطع النهـوض، بل وزاد خوفه وقلقه وتفاقم وضعه الصحي.

لكنه لم يستسلم. راح يحبو على يديه وركبتيه، حتى وصل إلى السلالم. حـاول أن ينزل، وتزحلقت يداه المتصببتان عرقاً، فتدحرج إلى الأسـفل، وأصيب رأسه وراح ينزف.

زحـف إلى باب القصر، باحثاً عمن قد يسـاعده، مـن بعض المارة أو سائق سيارة قد تمر من هنا أو هناك...

لحسـن حظه، كان الباب الداخـلي للقصر مفتوحـاً؛ إذ نسي في الليلة الماضيـة أن يطلب منـه الإقفال. أما البـاب الخارجي للقـصر فإنه يقفل بشكل آلي ومحكم بعد فترة زمنية محددة.

اسـتمر السيد تكنولوجيا في الزحف حتى وصل إلى الباب الخارجي، مـروراً بالفناء المبلط باللون الأبيض الناصـع والذي أصبح الآن ملطخاً باللـون الأحمر. حاول أن يصرخ منادياً بأعلى صوته؛ ولكن صوته لم يكد يُسمع. طرق الباب بيده الهالكة، طرقات لا تصل إلى أذنيه.

تذكـر هاتفه الخلوي، الذي يُفتح عـن طريق صورة الوجه، بالإضافة إلى الصوت.

وبعد معاناة طويلة عاد إلى الداخل زحفاً. كان ما يزال ينزف، ودقات قلبـه تتباطـأ، وبدأ يجد صعوبـة في التنفـس. لكنه، بقوة إرادته وتمسـكه بالحياة، استطاع أن يصل إلى غرفة نومه.

حاول السـيد تكنولوجيا أن يعرّف الهاتف إليه. خلع قميصه المتسـخ ومسـح بـه آثار الدم عـن وجهه؛ ولكنه لم يسـتطع أن يزيـل آثار المرض

والتعب والخوف، وما إن رأى الهاتف وجهاً غير مألوف لديه، حتى أصر على الصمت وعدم فتح أزراره.

دبي، 3/ 2/ 2013

رائــحة الــموت

ظـلام دامس موحش. سـكن الكـون وهـدأ، إلا من رائحـة كريهة تسللت إلى أنفه كادت أن تقتله.

اسـتيقظ من نومه مختنقاً. حاول أن يـضيء المصباح القريب منه. نسي أن الكهرباء مقطوعة، ليس هي فحسب، بل كل مقومات الحياة البسيطة أصبحت معدومة.

لم يسـتطع النهـوض من فراشـه إلا بصعوبـة بالغة، بحـث بيده عن "ولاعة" ليضيء بها آخر شـمعة في المنزل والمنازل القريبة والبعيدة منه، والتي لن تدوم طويلاً.

تتسارع ضربات قلبه، إذ توقع أن يسمع صوت الصواريخ أو مضاداتها، أو صوت الرصاص والمدافع، أو أن يحدث انفجار يدمر الجزء المتبقي من الحي، الذي تدمرت أجزاء كبيرة منه، وما تزال الجثث لم تبرح مكانها.

مدينة ملغومة بالمعسكرات، وبطون جبالها مخازن لأسلحة صدئة.

هرب مَنْ بقي حياً من السكان في الحي والأحياء المجاورة. ظل هو وحيداً في هذا المكان المُوحَش الذي صار لا يعرفه ولا ينتمي إليه.

ظل منسياً، وحيداً، مُصرّاً على عدم الذهاب إلى مكان آخر، في انتظار عودة ابنته وزوجها، اللذين ذهبا إلى الضفة الأخرى من الوطن للعلاج من العقم، قبل بدء الحرب بأيام معدودات.

يتذكر صوتها عبر الهاتف في آخر حديث بينهما، وهي تبكي بصوت حزين متقطع:

– الموت هنا يا أبتِ! الموت في كل مكان! جثث في الشوارع، جدران البيوت مصبوغة بدماء الأبرياء، السماء تمطر وابلاً من رصاص... أتيت إلى هنا لأحمل الحياة في أحشائي، فلم أجد سوى الموت، الموت بالمجان يا أبتِ! الموت في كل مكان!

كلما تذكّرها ازدادت الرائحة الكريهة في أنفه.

الرصاص والمدافع تدوي في أذنيه. وصوتها المرتجف خوفاً ورعباً...

سمع ضربة قوية خارج غرفته. تسارعت دقات قلبه بسرعة أكبر.

صرخ:

- حمداً لله! عادت ابنتي.. عادت روحي إليَّ!

حاول أن يسمع خطوات أقدامها المتسارعة. خرج إليها بقدمين تحملانه كرهاً.

يناديها، فلا يسمع إلا صدى صوته. فتش عنها. استمر في البحث.

قادته رائحة الموت إلى غرفتها. فتح الباب بخوف وحذر، بيدين مرتعشتين، فلم يجد سوى: سرير مهجور، وشباك مكسور مفتوح على مصراعيه، وساعة حائط عقرباها يزحفان ببطء شديد.

2015 /6 /27

ثلاجة رضوان

في إحـدى الليالي الباردة، اجتمع رضوان مـع ولديه وابنته وزوجته، في المجلـس، بالقرب مـن المدفأة الكهربائية التي اشـتراها منـذ أكثر من عشر سنوات بالتقسيط، والتي ما زالت تعمل بشكل مقبول نوعاً ما، مع إصدار صوت مزعج اعتادوا عليه.

سألته ابنته الصغرى:

- متى سيأتي آخر الشهر يا بابا؟!

يضحكون جميعاً من سؤالها؛ لأنهم يعرفون ماذا تريد.

يجيب رضوان:

– بعد ستة أيام... ولماذا تسألين؟!

– لكي تشتري لنا الثلاجة ذات اللون الفضي.

– أما زلتِ تصرّين عليها؟!

– نعم.

– ولمَ؟!

– لأنها كبيرة وأستطيع أن أختبئ فيها عندما ألعب مع إخوتي.

يضحك الجميع. ويجيب الأب مبتسماً وبنبرة حزينة:

– لكنـي لا أسـتطيع شراءها، فهي باهظـة الثمـن... والجمعية التي اشـتركتُ فيها مُشـترطاً أن أتسـلمها أولاً ووضعت فيها أكثر من نصف الراتب، ستسـتمر ما يقارب السنة من أجل أن أشتري ثلاجة أصغر منها بكثير؛ ولكني سأحقق رغبتكِ بأن تكون فضية اللون!

تعطلت ثلاجته التي اشـتراها قبل زفافه، والتي ما عادت تعمل نهائياً وأصبحت غير قادرة على العطاء.

سنة كاملة ورضوان يضع أغراض البيت، من خضروات وفواكه ولحم وسمك، في أكياس سوداء، ويوزعها على ثلاجتَي جاريّه بالتناوب.

اليوم سيتسلم راتبه، بالإضافة إلى مبلغ الجمعية، وسيشتري ثلاجة متوسطة الحجم. ومن شدة فرحته، لم ينتظر كثيراً، فقد استأذن للخروج من العمل باكراً، وأخذ سيارة (بيك آب) وذهب بها إلى السوق فوراً.

كانت الشوارع مزدحمة، والفوضى عارمة في كل أرجاء المدينة، وعلى مداخل السوق هناك لجان شعبية بزعم حماية الوطن، تمنع السائقين من المرور وتجبرهم على العودة، كما أجبرت أصحاب المحال على إغلاق محالهم.

عاد رضوان إلى البيت خائباً، آملاً أن تنتهي هذه الأزمة وتعود الحياة في المدينة إلى طبيعتها.

يوم بعد يوم والوضع يزداد سوءاً، تزداد الاشتباكات في الشوارع، بين اللجان الشعبية ورجال الأمن، ويزداد الأمر خطورة.

بدأ الناس بشراء احتياجاتهم من المواد الغذائية بكميات كبيرة. استغل التجار الوضع ورفعوا الأسعار، وأخفوا العديد من المؤن من الأسواق، ليبيعوها بأسعار مضاعفة.

اضطر رضوان، بعد أن توقفت الدائرة الحكومية التي يعمل بها عن العمل وظل ملازماً للبيت، أن يشتري بنصف قيمة الثلاجة ما يلزم من موادّ غذائية (سكر ودقيق ورز وسمن... ألخ)، وكالعادة، وضع ما

اشـتراه من (خضروات، ولحـوم، وبيض، وحليب ... الـخ) في أكياس سوداء وحملها ولداه وزوجته ليوزعوها على جيرانه.

عاد زوجتـه وولداه حاملـين الأكياس وخائبـين، فثلاجات الجيران مليئة بالمواد الغذائية الخاصة بهم.

ظلت الأكياس مكدسة في المطبخ حتى تعفنت.

طالت الأزمة، وتـم قطع التيار الكهربائي عن المدينة، لفترات طويلة جداً، وخاصة في الليل.

ولأن رضوان وأسرته كانوا يعتمدون على المدفأة الكهربائية في الليالي القارصة، فقد ازداد الوضع سوءاً وخطورة.

ظـل رضوان حائـراً ما الذي عليـه أن يعمله. أخذ مـا تبقى من ثمن الثلاجـة، وذهب بـه إلى أحد جيرانه معروف عنه قدرته على التسـلل إلى خارج المدينة لشراء احتياجات الناس الضرورية وبأسعار مضاعفة جداً. أعطاه ما بحوزته من نقود لكي يشـتري له بطانيات وحطباً وفحماً، طالباً منه أن يبحث له عن مُولِّد كهربائي مستعمل وبسعر مناسب.

قبيل الفجر، ذهب المُهَرِّب ومعه قوائم الطلبات الخاصة بسكان الحي، انطلق بسيارته (الهايلوكس) في الظلام... ولم يعُد!

2015 /7 /5

الشوارع الضالة

وصل إلى الفندق بعد عناء يوم طويل وشاق. دخل إلى جناحه مرهقاً. لم يكـن يتوقع أن يحـدث له هذا بعد غيـاب كل هذه السـنين. حاول أن ينام؛ إلا أن صوت الضابط، الذي كان يضع ختم الدخول بين فكيه وهو يتحدث، يرنّ في أذنيه:

– ولماذا تم إلغاء إقامتك؟!

– لقد عدت إلى الوطن. أهناك ما يُجرِّم عودتي بعد هذا الغياب؟!

– هنا، أنا أسأل، وأنت تجيب (قالها بغضب).

حاول أن ينسـى ذلك التحقيق السخيف وغير المبرر، وقام من سريره

متجهاً إلى أحد الشبابيك يتأمل مدينته التي زادت ظلاماً عما قبل. معظم الشوارع والبيوت غير مضاءة. عويل الكلاب المتشردة في الطرقات الخالية من البشر تزيد الليل وحشةً.

استنشق نفساً عميقاً وتذكر ضيق الاختناق الذي عانى منه في صالة المطار، التي امتلأت بالقادمين على طائرتين وحيدتين هبطتا في المطار الدولي الذي لم يتغير كثيراً منذ أن تركه؛ إلا أن الجدران والأرضيات بهت لونها بل كادت أن تختفي مع امتداد الزمن، و5 شبابيك استقبال، كل شباك به نافذتان، والموظفون 3 فقط. وفي السقف ثمة غراب أسود ضخم يراقب القادمين بإشمئزاز.

أثناء انتظاره، جرفه الحنين إلى ذكريات بعيدة. تذكر بكاءه الشديد وانهياره عندما باع آلة الخياطة الخاصة بوالدته ليتمكن من الهجرة إلى الخارج، وسافر وكل ما لديه لا يكفي ليلة واحدة في فندق.

تنقل بين شباكي الغرفة محاولاً أن يخمن موقع مدرسته الثانوية، التي تبعد أمتاراً قليلة عن الفندق الذي نزل فيه؛ إلا أن الظلام كان حالكاً. آخر بيت سكن فيه كان على بعد كيلومترين تقريباً. الحقيقة أنه لم يكن بيتاً، بل كان "دكاناً"، عبارة عن غرفة صغيرة وحمام، فقد كانت أمه تتنقل به من حي إلى حي، ومن "دكان" إلى "دكان"، بحثاً عن إيجار زهيد ولقمة العيش.

يعود إلى السرير ويرن في أذنيه مرة أخرى صوت الضابط:

– لماذا لم تأتِ إلى بلدك منذ أكثر من 15 عاماً؟!

– لديّ أسبابي الخاصة.

أشار له الضابط بأن يقف جانباً، دون أن يعرف السبب. ظل مدة طويلة يراقب الآخرين يمرون من أمامه.

لقد زار بلدان العالم بهذا الجواز دون أن يتعرض لأي مساءلة من أي نوع؛ ليس لقوة الجواز، بل لمنصبه الذي كان: مدير عام شركة شهيرة لها فروع ومكاتب في معظم أرجاء العالم.

(2)

في اليوم التالي، خرج مشياً على الأقدام، وعرّج على عدة أحياء قديمة متجاورة كان قد نشأ فيها وحيداً منذ طفولته، مع أمه التي كانت له الأب والأخ والصديق، وكانت تعمل على آلة الخياطة، و"دلّالة" أقمشة وبعض العطور والملابس، وكافحت من أجله كفاحاً طويلاً... كانت الطرقات والشوارع والأزقة تبث في داخله الحنين إلى المرأة الوحيدة التي لم يعرف غيرها في الحياة، وشريطاً من الذكريات المؤلمة أمام عينيه؛ فعندما أكمل

الثانوية العامة بمستوى درجات عالٍ يؤهله لكلية الطب أو الهندسة، أراد فوراً أن يبحث عن عمل ليعوض أمه سنين الشقاء والعناء. جثت عند قدميه باكية متوسلة أن يكمل دراسته، وألا يفكر بأي شيء آخر سوى حصوله على الشهادة الجامعية. ونزولاً عند رغبتها وإصرارها، واصل تعليمه والتحق بكلية التجارة والاقتصاد.

لم ينْسَ لياليها الطويلة المتعبة وهي تحرم نفسها من الأكل والنوم لأجله.

جُلّ الأيام ينام والدموع ملء عينيه، محاولاً ألا يجهش بالبكاء، وهو يراقب أمه من تحت لحافه الذي لا يُسمن ولا يُغني من البرد شيئاً، وهي على ماكينة الخياطة، وكيف تصب على وجهها الماء البارد من "الزير"، لتتمكن من مواصلة العمل، والإرهاق والتعب ينخر في جسدها كالسوس.

كانت كل شيء في حياته. وكان باستطاعته ترك الدراسة والبحث عن عمل فقط كي يُريحها من هذا العذاب؛ ولكنه كان يعلم جيداً أنه سيكسر قلبها، وأنها سعيدة بما تقدمه له الآن.

توفيت وهو في السنة الثانية من دراسته الجامعية. لم يحضر جنازتها

أحد. ولم يستطع أن يكمل الحياة وحيداً من دونها في هذه المدينة التي لم تقدم له شيئاً سوى حلم مبتور.

قرر الهجرة. وفي إحدى الليالي احتضن آلة الخياطة بكل قوته، وظل يتمسح بها ويقبّلها والدموع تنهمر من عينيه. تحولت الآلة الجامدة، الباردة، الصامتة... إلى صدر دافئ يحتويه كأنه يناجي أمه ويودعها للمرة الثانية.

باع ماكينة الخياطة، وأضاف إلى ثمنها مبلغاً من المال كانت أمه قد ادخرته له، وتمكّن من السفر إلى الخارج، وبدأ حياته عاملاً في محل لزينة السيارات، ثم تنقل بين شركات متفرقة عدة، إلى أن استقر في شركة للاستيراد والتصدير، وطوّر أداءه ومهاراته، واستطاع أن يحقق حلم أمه ويكمل دراسته عن بُعْد، بل تجاوز حلمها وأخذ الدكتوراه في مجاله، وأصبح مديراً عاماً للشركة.

(3)

قبل وصوله إلى السوق الشعبي، بدأ يبحث عن صرَّاف. لم يجد سوى محل صغير جداً يتعامل بشكل يومي مع أصحاب الباصات وسيارات الأجرة، و"الموتورات" وبعض المواصلات القديمة، التي عادت إلى

الحياة مجدداً، كالحمير والبغال... كان المحل يحتوي على "شوالات" عدة كلّ منها يحتوي على عملة معدنية معينة – لم تكن موجودة في عهده، وأمامه مجموعة من علب الفول والفاصوليا والصلصة الفارغة. كان الصرَّاف يغرف من "شوالات" النقود المعدنية ويعبئ هذه العلب، وكل علبة لها تسعيرة معينة من الأوراق النقدية.

أراد أن يصرف مبلغاً بسيطاً من المال، فقام الصرّاف وأعطاه رُزَماً من الأوراق النقدية المختلفة أضعافاً مضاعفة، بالإضافة إلى عشر علب متفاوتة الحجم بها عملات معدنية مختلفة، فاضطر إلى وضعها جميعاً في كيس واحد.

معظم البائعين والبائعات الذين على الرصيف لم يبلغوا الحُلُم بعد. لمح في يد أحدهم ميدالية خشبية مكتوباً عليها لفظ الجلالة (الله)، فأراد أن يشتريها. وافق على بيعها له، بسعر عالٍ جداً. وضعها على صدره بعد أن اشترى لها سلسلة فضية، أسوة بأمه التي كانت تعلقها كالقلادة مع مفتاح البيت.

وضع كيس العملات المعدنية على الأرض، وأخرج من جيبه طبعات مختلفة من الأوراق النقدية، وظل يتأملها مستغرباً ومتفحصاً محاولاً أن يتعرف إليها، كأنها المرة الأولى في حياته التي يرى فيها نقوداً! استغرب

البائـع من تعليق الميدالية، وعدم معرفته بالنقـود، مما أوحى إليه بأن هذا الرجـل الأنيـق جداً يعاني تخلفـاً في العقل أو نقصاً في الفهم. سـاعده في استخراج المبلغ المسـتحق، وهو يتمتم ببعض الآيات القرآنية، وبكلمات يرْقِـي بها نفسـه، وحامـداً ربه على نعمـة العقل التي هو فيهـا، وختمها بقوله: "الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من الناس".

أثناء ذلك، مرّ من أمامه بائع متجول بعربة فيها تين شوكي. استوقفه، وظـل يأكل من التـين، وذهبت به ذكرياته إلى أمـه التي كانت تحب التين الشـوكي كثيراً. تذكّر عندما سرق واحدة وذهب بها إليها، فلم تعاتبه ولم تقسُ عليه، بل قامت بإزالة الأشواك من يده ومن قلبه بكل حب وحنان، وأعطته قطعة معدنية واحدة ليلحق بصاحب التين ويعتذر منه، لأنه أخذ منـه شـيئاً دون مقابل. ذهب مسرعاً يبحث عنـه، وعندما وجده رمى له النقود وفرّ هارباً دون أن ينبس ببنت شفة، مخبراً أمه بأنه اعتذر له. كانت تلك أول وآخر كذبة كذبها عليها.

انتهـى مـن أكل التـين، ونـاول الرجل كيـس العمـلات ليأخذ منه الثمن.

انتشر خبر تخلفه العقلي في السوق بسرعة البرق، فكان كلما مرَّ بمكان سـمع آيات قرآنية وأدعية مأثـورة وحمداً وشـكراً... وينظرون إليه وإلى هيبته بإشفاق شديد.

(4)

وصل إلى مطعم يقدم الكباب البلدي. وعلى باب المطعم شواية دجاج.

طلب صحن كباب وسلطة ونصف دجاجة، وجلس على الكرسي والطاولة الحديديين وراح يأكل وجبته التي كان يأكلها في السنة أو السنتين مرة واحدة. أكل بشراهة ولذة سائلاً نفسه عن السبب: هل هو نتيجة المشي طول اليوم، أم تعويضاً عن حرمان سنين مضت؟!

فجأة، وجد أمامه طفلاً عمره سنتان يجثو على ركبتيه، ومادّاً بطن يديه إلى الأسفل، وفاتحاً فمه يخرج لسانه ويعيده بحركة سريعة، ويسيل لعابه، ويتحرك ويتحكم في جسده بطريقة مدهشة كأنه حيوان في سيرك!

التفت يمنة ويسرة يبحث عن أهل له، فلم يجد أحداً.

أخذ الصحن من على الطاولة ونزل به إلى الطفل. أخذ الطفل الطعام، رافعاً ثوبه المتسخ القصير، حتى بانت سوأته، وأخذ يجري بالطعام بأقصى سرعة، فسقطت منه قطعة من فخذ الدجاج. عاد والتقطها بفمه دون أن يأبه لالتصاق التراب بها، وذهب مسرعاً ورمى الطعام بالقرب من كلبة كانت في انتظاره، قامت بتفتيت الطعام وإطعامه من فمها وشاركته الأكل، ثم تمددت على ظهرها ليحتضنها ويرضع من ثديها وينام.

واصـل المشي بين الأحيـاء والشـوارع وكأنه إبرة تجُـرُّ خلفها خيوط الذكريات تُرقّع شـوارع وأحياء صدئت وشـاخت وتغـيرت الكثير من ملامحها وصُبغت سماؤها بأدخنة سوداء، وانتشرت بين أرصفتها المتسخة جِراء الشوارع الضالة.

2016 /4 /19

ضيـاع

واقفة أمامه متسمرة، تنهمر الدموع من عينيها.

– لقد أصبحت كل حياتي! وحياتي ليست ملكي! أرجوك! ارحل! لا أريد أن أراك مرة أخرى!

ظل صامتاً حتى انتهت من حديثها. ضمها إلى صدره وقبّلها.

حين هدأت من البكاء، واستعادت ذاتها، كان قد رحل.

بحثـت عنـه في كل مـكان، فلـم تجـده، ولم تجـد حياتها التـي تركته لأجلها.

2012 /6 /20

الوهـــم

كانـت تهـواه بجنـون. وعندما هدأ العشـق، رغبت بـه صديقاً، وفي الوقـت نفسـه لم تشـأ أن تجرحه أو تسـبب لـه الألم؛ فما زالـت تحتفظ له بذكريات جميلة.

كانـت كل حياته. لم يشـأ أن يتركها ولو لحظـة واحدة. كان يتصل بها على مدار السـاعة، ويـأتي إليها دائماً، ويراسـلها عبر البريـد الإلكتروني والرسـائل القصيرة. يُهديها الأغـاني وعبارات الحب عـبر التلفاز. يُجهد نفسه كثيراً ليظل كالروح الهائمة حولها...

وعندما ازداد هوسـه بهـا وملاحقته لها، بدأت تشـعر بخطورته على

حياتهـا، كانت تظـن أنه يطاردهـا في كل مكان، حتـى في أحلامـها التي تحولـت إلى كوابيس... تملكها الخوف والرعـب بعد أن كان حبهما أمانها وطمأنينتها.

لم تسـتطع أن تُفصِح له عن مشاعر الحب المنتهية، وعما في داخلها من قلق دائم... ورحلت في صمت.

لم يصدق أنها رحلت.

وظل ينتظر الوهم.

2014 /9 /27

تعب

وصل إلى بيته في منتصف الليل. كان مرهقاً جداً.

وجدها أمامه عارية تماماً. تنظر إليه بوحشية جامحة.

استلقى على السرير. لم يستطع حتى أن يغير ملابسه.

عـلى غير عادته، لم يحدثها، بـل ظل يتأملها بعينيـه. وإن هي إلا ثوانٍ معدودة حتى غطَّ في سُبات عميق.

وظلت اللوحة مكانها عرض الحائط.

2012 /1 /15

لص

بينما هي منشغلة بمن حولها، أخذ من حقيبتها وشاحها الأزرق، ليرى زرقة السماء في المساء.

وعندما أخبرها بذلك نظرت إليه بدهشة وتعجب!!

صارت كلما رأته تحبس نفسها عن الكلام، وتقفل باب قلبها بقفل كهربائي يسري إلى عروق جسدها المرتجف، تحتضن حقيبتها كوليدها، متلفتة يمنة ويسرة تفتش عن أشيائها الصغيرة بجنون.

عـــــودة

يعود إليها بألوان الطيف الستة...

تاركاً اخضرارَ قلبه في المكان الذي جاء منه.